المبحث السادس
تربية المرأة المسلمة في عصور الركود والتقليد

ابتدأت فترة الركود والتقليد بعد فترة الازدهار والانتشار، فعاش الفكر الإسلامي فترة انعزال وجمود وركود؛ حيث أصبحت التربية الروحية مجرد بحوث جدلية، وشاعت الخلافات المذهبية، وانحصرت العلوم في اللغة العربية والعبادات المذهبية بعيدا عن العلوم الكونية. (عبد الحميد الهاشمي، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م، ص٢٩). و استمر الركود والتقليد حتى مطلع العصر الحديث؛ حيث بدأت محاولات إعادة صياغة الفكر الإسلامي من جديد.

وقد وجهت الأصول الاجتماعية تربية المرأة المسلمة في عصور الركود والتقليد، وذلك ما سوف نوضحه من خلال البحث فيما يلي: -

١- الحالة الفكرية للمجتمع الإسلامي في عصور الركود والتقليد.

٢- تعليم المرأة المسلمة في عصور الركود والتقليد.

٣- المبادئ التي وجهت تربية مسلمة عصور الركود والتقليد.

أولا: الحالة الفكرية للمجتمع الإسلامي في عصور الركود والتقليد:

طالب العلماء في بداية القرن الرابع الهجري بوقف باب الاجتهاد، الأمر الذي أثر سلبيا على نمو العلوم في مختلف المجالات، وذلك بسبب ما ساد العلماء وطلاب العلم في تلك الفترة من مظاهر التقليد والحزبية المذهبية (الندوي، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص ٢٨١)، وما طرأ على الفكر الإسلامي من أفكار ومعتقدات ضالة، وضيق في مفهوم المنهاج. وتفصيل ذلك كالتالي:

١- شيوع ظاهرة التقليد:

بدأت هذه الظاهرة في البروز منذ نهاية عصور الازدهار. ونجد الغزالي يشير إلى ذلك بتوجيهه النقد إلى المقلدين؛ الذين كانوا يقلدون أصحاب المذاهب في الظاهر فقط، في حين أنهم يخالفونهم في أعمالهم وسيرهم. (أبو حامد الغزالي، د.ت، ج١، ص٢٥) وقد اعتبر الغزالي ذلك دليلا على قلة البصيرة (الكيلاني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٧٢).

ثم نأتي إلى عصور الركود والتقليد؛ حيث نجد من بين العلماء من نادى بالتقليد، والتزام التراث السلفي، ومن بينهم الزرنوجي الذي كان من أقواله: "عليكم بالعتيق وإياكم والمحدثات" (الزرنوجي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م، ص٧١). ونتبين مدى مجانبته للصواب حين نعرف أنه كان ينادي بالتزام طريقة السلف وأسلوبهم في كل شيء، حتى في الحبر الذي كانوا يكتبون به، حيث نهى عن استخدام الحبر الأحمر لأنه من صنيع الفلاسفة (الزرنوجي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١ م، ص ٨٥).

وبالمقابل نجد من علماء هذا العصر من أدرك خطأ التقليد وحذر منه وبين أخطاره، ومنهم الإمام الماوردي (الماوردي، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م، ص٥٣)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (الكيلاني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٤٥، ص٢٠١) .

ومما أدى إلى تكريس التقليد؛ إلغاء حرية التعليم، حيث أصبحت الدولة تشرف عليه، وترعى مؤسساته، وتعين المعلمين، وتقرر المناهج. فأصبح المعلمون مجرد موظفين، الأمر الذي جلب إلى مهنة التعليم البعض من طالبي الدنيا (الكيلاني،١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٧٩-١٨١).

وقد بلغ التقليد في هذا العصر درجة عظيمة؛ حيث وجد هناك من رأى بأن التدريس في المسجد أفضل من المدرسة لأن السلف لم يعهدوا المدارس، كما وجد أيضا من دعا إلى الانكباب على تراث السلف دون زيادة أو تطوير؛ لأن علومهم تلبى حاجات كل تطور، بل زادوا؛ فرموا كل داع إلى التجديد بالجهل والانحراف (الكيلاني ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢١٤-٢١٥).

٢- انتشار الحزبية المذهبية:

وجه التعصب المذهبى مؤسسات التعليم التى انتشرت، فكان لكل مذهب مدارسه إلى جانب الأربطة والزوايا التابعة له، وكان كل مذهب يحدد للمنهاج التربوي تصورا جزئيا لا يخرج عن حدود الإطار العام للمذهب (الكيلاني ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٧٨-١٧٩).

ونجد من علماء هذا العصر من ندد بالتحزب، وأبرزهم ابن تيمية الذي كان من ضمن أقواله: " وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ويفعلوا ما يلقى بينهم العداوة والبغضاء. وليس لأحد منهم أن يأخذ العهد على أحد بموافقته على كل ما يريده، وموالاة من يواليه ومعاداة من يعاديه "(ابن تيمية، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م، ج ٢٨، ص ١٥ -١٦).

٣- تسرب الأفكار والمعتقدات الضالة:

وقد حدث ذلك عن طريق الترجمة، ومن بين من انتقد ذلك ابن تيمية، الذي أوضح بأسلوب علمي؛ أن مهمة التربية إنما تتمثل في تصحيح الأخطاء التي لحقت بالمجتمع جميعها، للعودة إلى ما كان عليه السلف من أصول صحيحة (الكيلاني، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٧١).

٤- ضيق مفهوم المنهاج:

إلى جانب مناداة العلماء بالتزام التراث؛ أصبح هناك تركيز على علوم الدين واللغة العربية، وأصبحت العلوم الطبيعية والاجتماعية ينظر إليها بعين الارتياب، مما حصر المعرفة في مجرد ترديد معارف السلف، أو شرحها، أو تلخيصها. وأصبح الاقتداء هو أبرز العلوم العقلية (الكيلاني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٨٤-١٨٦، ص٢١١-٢١٢).

ومما ظهر في هذا العصر؛ نظم مؤلفات السلف في قصائد شعرية، كما ظهرت الحواشي التي تكتب على الشروح، فأصبح المنهاج يقوم على تدريس الشروح والتلخيصات والمنظومات الشعرية والحواشي . واستمر هذا الضيق؛ حتى آل المنهاج إلى شرح كتب الأقدمين وهو الحواشي، وشروح توضح الغامض، وهي التقرير. وأصبح التعليم يدور حول المتن والشرح والحاشية والتقرير (الكيلاني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٣٤-٢٣٩).

فهذه المظاهر التي تميز بها الفكر الإسلامي في عصور الركود والتقليد بصفة عامة؛ قد أثرت على تعليم المرأة في هذا العصر بصورة أكبر بكثير؛ حيث حصرته في مجرد قراءة القرآن، وبعض أمور الدين، وشيئا من الحساب في الغالب كما سنرى لاحقا.

ثانيا: تعليم المرأة المسلمة في عصور الركود والتقليد:

نتيجة للغلو في تطبيق قاعدة سد الذريعة؛ وضعت قيود كثيفة على حياة المرأة المسلمة بعد عصر الرسالة الذي نعمت فيه المرأة بكامل الحقوق التي منحها إياها الخالق. وقد بلغ الغلو درجة من التطرف جعلت من المسلمين من يأنف من التصريح باسم زوجته أو أخته، ويغار من ذكره ولو لحاجة عارضة (أبو شقة،١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م، ج٣، ص١٨٤-١٨٨، ص٢٠٧).

وقد بدأت مؤشرات انحراف المسلمين عن تعاليم دينهم في معاملتهم للمرأة بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة، وأول ما تمثل في المناداة بمنعها من المسجد الذي نهى الرسول ﷺ عن منعها منه.

وقد استدل القائلون بالمنع من ضمن ما استدلوا به قول عائشة رضي الله عنها الذي روته عمرة بنت عبد الرحمن، حيث قالت: " لو أن رسول الله ﷺ رأي ما أحدث[1] النساء لمنعهن المسجد كما منعت بني إسرائيل." (مسلم، د.ت، ج١، الصلاة/ ٣١، ص٣٢٩).

فالقائلون بالمنع - كما يقول أبو شقة - قد نسوا بأن الشريعة لا ينسخها كلام أحد من الناس مهما ارتفعت منزلته. (أبو شقة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٠م، ج٣، ص ٣٥)، إلى جانب أن عددا من العلماء قد جاء بكلام جيد في تأويل قول عائشة رضي الله عنها ومن ذلك قول الحافظ ابن حجر:

"و.. تمسك بعضهم بقول عائشة في منع النساء مطلقا، وفيه نظر، إذ لا يترتب على ذلك تغيير الحكم، لأنها علقته على شرط لم يوجد بناء على ظن ظنته فقالت: " لو رأى لمنع. " فيقال عليه: لم ير ولم يمنع. فاستمر الحكم حتى أن عائشة لم تصرح بالمنع وإن كان كلامها يشعر بأنها كانت ترى المنع. وأيضا فقد علم الله سبحانه ما سيحدثن فما أوحى إلى نبيه بمنعهن ولو كان ما أحدثن يستلزم منعهن من المساجد لكان منعهن من غيرها كالأسواق أولى. وأيضا فالإحداث إنما وقع من بعض النساء، لا من جميعهن فإن تعين المنع فليكن لمن أحدثت. والأولى أن ينظر إلى ما يخشى منه الفساد فيجتنب لإشارته ﷺ إلى ذلك بمنع التطيب والزينة[2].." (ابن حجر ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج٢، ص٦٢٤).

وعلى الرغم من أن البعض هو الذي أخذ بهذا التشدد في تعامله مع المرأة خاصة في القرون الأولى، وهو معلوم من الحرية التي كانت تنعم بها المرأة في ظل خير القرون، إلا أنه ومع توالي القرون قد ازداد البعد عن هدي الله في شأن المرأة، حيث دخلت على المسلمين تصورات باطلة منافية لما شرعه الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بالمرأة.

من ذلك ما جاء في مصنف ابن أبي شيبة مما يشير إلى الغلو الشديد في معاملة المرأة بما

---

(١) يعني من الزينة والطيب وحسن الثياب. (النووي، في مسلم، د.ت، ج١، ص٣٢٩).

(٢) للمزيد انظر (أبو شقة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج٣، ص٣٥، وما بعدها).

ينافي شرع الله ومما جاء فيه[1]:

١- من كره أن تؤم المرأة النساء (ابن أبي شيبة، ج١، ص٥٣٧).

٢- من كره خروج النساء إلى العيدين (ابن أبي شيبة، ج٢، ص٨٨).

٣- من كره خروج النساء إلى المسجد (ابن أبي شيبة، ج٢، ص٢٧٦).

كذلك شاعت بين المسلمين روايات وأحاديث إما موضوعة أو قريبة من الوضع، انتهت بالمرأة إلى الجهل التام، حيث أصبح تعليمها معصية، واطلاعها على شئون المسلمين أمر لا يخطر على بال.

لقد تجرأ واضعو الأحاديث على وضع أحاديث تخص أمور العقيدة، ومن ثم فما من شك في أنهم كانوا أكثر جرأة في وضعهم الأحاديث عن المرأة؛ مما كان له أسوأ الأثر في تشويه صورة المرأة في أذهان كثير من المسلمين؛ لأنها تحذر من شر المرأة، وتؤكد أنها أصل البلاء وسبب الشقاء للرجل، ومنها ما يؤكد أهمية سوء الظن بها، ومخالفتها، ومنها ما يأمر بإذلالها واحتقارها حتى لا تقاوم الرجل، ومنها ما يحط من قدر الجميلات أو السوداوات، ومنها ما يحط من قدر المنجبات، ومنها ما يذم غير المتزوجات...إلخ.

ومن بين هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة[2]:

١- شاوروهن وخالفوهن: مع أن الرسول ﷺ قد أخذ بمشورة أم سلمة يوم الحديبية. قال الألباني: "لا أصل له " (الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج١، ص٤٢٩).

٢- الطيرة في الدار والمرأة والفرس: وهذا حديث ضعيف حيث قال فيه الألباني: "هذا مختصر من الحديث الصحيح:"إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس. والحديث يعطي بمفهومه أن لا شؤم في شيء لأن معناه لو كان الشؤم ثابت في شيء ما لكان ثابتا في هذه الثلاثة " (الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج١، ص ٤٢٩).

ويؤيد ذلك قول الرسول ﷺ: " لا طيرة ولا هامة ولا صفر. "(ابن ماجه، د.ت،

---

(١) انظر في ذلك أبو شقة،١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج٣، ص٣٥ وما بعدها.

(٢) هذه الأحاديث والتعليق عليها مأخوذة عن (القيسي،١٤١١هـ/ ١٩٩١ م، ص١٥٩ -١٦٩).

ج٢، الطب/ ٤٣، ص ١١٧١) حيث ينهى عن التشاؤم والتطير ويذكر بعض ما كانوا يتطيرون به في ذلك العهد.

٣- الحديد في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد.

٤- تخيروا لنطفكم واجتنبوا هذا السواد فإنه لون مشوه (الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة،١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م، ج ٣، ص٢٧).

٥- دفن البنات من المكرمات: قال الألباني: "ضعيف" (الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م، ج٣، ص ١٥٥).

٦- طاعة المرأة ندامة: " موضوع " (الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩ م، ج٤، ص٨).

٧- هلكت الرجال حين أطاعت النساء:"ضعيف" (الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م، ج٦، ص ٤٣).

٨- لا تسكنوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور:"موضوع".(ابن الجوزي، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م، ج٢، ص٦٩٩).

وهكذا دفعت عامه النساء دفعا للبقاء في الجهل محرومات من نور العلم، بل إن الفتيات كن إذا ما تجرأن على الخروج لطلب العلم بفضل تشجيع الأهالي والمقربين؛ يقابلن بملاحظات قاسية من قبل الآخرين، خاصة النساء اللاتي كن يقابلنهن في طريق الذهاب أو العودة من وإلى المؤسسات التعليمية العالية التي وجدت آنذاك. بل إن من بين المتعلمات من كانت تتلقى تهديدات بهدف منعها عن إكمال مشوارها التعليمي، وقد حدث هذا مع عنبرة الخالدي المولودة في عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م بلبنان، والتي بعد إنهاء دراستها في الكتاب، انضمت إلى مدرسة تنتمي لجمعية ثمرة الإحسان، وكانت في العاشرة من عمرها حين بدأت تتسرب إلى سمعها كلمات تهديد وملاحظات قاسية، من نساء يصادفنها في الشارع، فيعبرن عن عدم رضاهن بخروجها لنيل العلم خارج المنزل (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص٢٤٩-٢٥٠).

وحدث ذلك أيضا بصورة أخرى مع الأميرة العمانية سالمة بنت سعيد بن سلطان [1]، وذلك أن تعلم الكتابة كان ممنوعا على البنات في جميع البلاد الإسلامية بصفة عامة، وقد شعرت الأميرة برغبة ذاتية في تعلمها، فعمدت إلى ذلك سرا عن ذويها، فلما انكشف أمرها لاقت الكثير من اللوم والتقريع والسخرية والاستهزاء ممن حولها. وتصف هي ذلك فتقول:

" بدأت أتعلم الكتابة بنفسي وبطريق بدائي جدا، وكان علي أن أعمل هذا بالسر والكتمان فما يجوز لامرأة أن تتعلم الكتابة أو تعلن معرفتها بها، وكانت دروسي الأولى أن أحاول محاكاة حروف القرآن على عظم بعير، وهو يقوم في زنجبار مقـام السبورة. وقد شجعني نجاحي على الاستمرار في المحاولة والتوفيق فيها. ولكن بعد مرحلة معينة كان لابد من وجود معلم يعلمني أصول الخط، وقد عهدت إلى أحد عبيدنا المتعلمين شرف تعليمي أصول الخط. ولكن أمري سرعان ما انكشف للجميع، فثارت علي زوابع اللوم والتقريع وحملات السخرية والاستخفاف، ولكني لم أحفل بها ولم تفل عزيمتي شيئا، فمضيت في دروسي حتى أتقنتها. ولست الآن بآسفة على تلك الساعات الطوال التي قضيتها في هذا الدرس، فالكتابة الآن هي وسيلتي الوحيدة للاتصال بالقلائل من أصدقائي الأوفياء المخلصين في وطني البعيد " (سلطان، د.ت، ص ١٠٤).

وعلى النقيض من موقف المحيطين بالأميرة سالمة؛ نجد موقف المحيطين بالأميرة عائشة؛ ابنة السلطان عبد الحميد الثاني، وعلى رأسهم والدها ووالدتها. فقد بذل الجميع كل ما في وسعهم من أجل جذبها للعلم، ووفروا لها الجو الملائم لذلك.

فبعد أن وصلت الأميرة عائشة إلى مرحلة التحصيل، عرضت أمها الأمر على والدها الذي رتب أمر تعليمها هي وإحدى أخواتها معا، وقامت الأم بإعداد حقيبتها المدرسية،

---

(١) **سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان** أميرة شرقية ابنة سلطان عربي؛ خرجت على دين قومها وتقاليدهم، وتزوجت شابا ألمانيا، وهجرت وطنها من أجله. عاشت في ألمانيا، واستبدلت اسمها باسم أعجمي هو البرنسيس إميلي روث، ثم عادت إلى ديارها بعد عشرين عاما، لكن أغلقت الأبواب أمامها. ولدت بين عامي ١٨٤٤م ، ١٨٤٥م / ١٢٦٠ ، ١٢٦١ هـ وخرجت من عمان في عام ١٨٦٦م/ ١٢٨٢ هـ، وتوفيت عام ١٩٢٢م / ١٣٤١ هـ وهي في حوالي الثمانين، وزارت بلادها عام ١٨٨٥م / ١٣٠٣ هـ. (سلطان، د.ت، ص٩، ص ٤٨).

ولا أرى من سبب لهذه المأساة سوى الجهل الذي أعمى هذه الأميرة عن رؤية الحق الذي تنعم به، لتتركه إلى الباطل؛ حيث ارتدت عن الإسلام من أجل تحقيق شهوة النفس.

واتخذت جميع الاستعدادات لذلك، مما أدخل على قلب الابنة الفرح والسعادة بما هي مقبلة عليه، ونجدها تعبر عن تلك الفرحة التي غمرتها بقولها:

" وكانت فرحتنا بلا حدود، أعدت لي والدتي حقيبة المدرسة، وكانت من القطيفة البنفسجية الرائعة المطرزة بخيوط الفضة، وضعت فيها كتاب الأبجدية المذهب والأهلة[1] الذهبية ذات الأطراف الماسية. ولأنني كنت أحب اللون البنفسجي كثيرا؛ فقد أعدوا لي حقيبتي منه. واختاروا يوم الخميس الأول من شهر المولد النبوي (ربيع الأول) وسلمونا إلى المربية في هذا اليوم حتى نبدأ باسم الله، ومضينا إلى حجرة الدرس وجميع العاملين في السراي يقفون عند باب الحريم لتوديعنا وهم يقولون: " يفتح الله عليكن، كما كان الأغوات عند السلاملك والعمال الآخرون في السراي يرددون نفس الدعاء".

ويبدوا إدراك الأم لأهمية تعلم ابنتها؛ من هذه الاستعدادات التي اتخذتها، وكذلك من نصحها لابنتها بطاعة المعلم الذي يفوق فضله فضل الأبوين (أوغلي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٠٠-٢٠١).

كما يبدو اهتمام الوالد أيضا من الترتيبات التي أعدها لتعليم ابنته، وكذلك من التشجيع الذي لم يكن يبخل به على ابنته. فبعد أول درس لها؛ تذكر الأميرة عائشة أنها قد ذهبت لتقبل والدها الذي شجعها وأختها بقوله: " اليوم بدأتن الدروس، هل صحيح؟ إن شاء الله تدرسن جيدا، وعلي المقابل " (أوغلي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٠٠-٢٠١).

ثم نجدها بعد أن تعلمت الكتابة؛ يطلب منها معلمها كتابة دعاء لوالدها لتعرضه عليه، ثم يضع الورقة المكتوبة في مظروف كبير لتقدمه لوالدها عقب تهنئته في ذكرى جلوسه على العرش. وتصف عائشة الموقف بقولها:

" والتزمت هذا الأمر، فدخلت والورقة بيدي، ثم قبلت يده وقدمتها إليه، فتناولها الوالد، وضحك، ثم فتحها وقرأ ما فيها،... وبعدها جذبني إليه وقبلني من الوجنتين، ومسح على رأسي ثم قال: " أحسنت يا ملاكي! كتبتها بأجمل ما يكون، أشكرك، إنك

---

(١) تطلق كلمة (هلال) على الأعواد الرفيعة التي تصنع من العظام والعاج والفضة وغيرها لاستخدامها في الإشارة إلى حروف الهجاء للأطفال المبتدئين في تعلم القراءة والكتابة. (أوغلي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢٠٠).

تتقدمين، ما شاء الله"، ويومها فرحت كثيرا، وأعرب معلمي عن فخره بي. وبعدها أنعم عليه السلطان، وأرسل من ينقلون إليه شكره على حسن اجتهاده مع الأميرات، وجعلت أمي هذا الخط في إطار لازلت أحتفظ به حتى الآن تذكارا" (أوغلي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص١٥٥ -١٥٦).

وقد كان التعليم المتخصص للنساء في عصور الركود والتقليد غير متيسر إلا للقلة ممن ينتمين إلى علية القوم، أو ممن أتاح لهن القدر الانتماء إلى بيئة علمية أو تهتم بالتعليم، في حين كانت غالبية النساء يتلقين تعليما بسيطا في الكتاتيب.

لقد كان الآباء من المتعلمين يهتمون كثيرا بتعليم بناتهم؛ خاصة إذا ما وجدوا لديهن استعدادا لذلك، فيحضرون لهن المدرسين إلى المنزل.

فنجد في بداية هذه العصور؛ شهدة الدينورية، التي اعتنى أبوها المحدث أبو نصر أحمد بن الفرج الدينوري بتعليمها (يوسف، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣، ص ٥٩)، وفي نهايته نجد في السودان مريم بنت الحاج عطوة، التي اعتنى والدها الفقيه عطوة المغربي بتعليمها؛ حيث علمها الفقه، وكذلك أم كلثوم بنت القرشي؛ والدها العالم القرشي ود الزين الذي بلغ درجة عالية من العلم (الطيب، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٥٣-٢٥٤).

كذلك نجد زينب فواز المولودة بين عامي ١٢٦٢- ١٢٧٧هـ/ ١٨٤٥- ١٨٦٠م؛ قد شجعها صديق العائلة حسن حسني الطويراني (صاحب مجلة النيل) على قراءة الأدب والشعر وتعلم التاريخ . وهدى شعراوي؛ كانت أمها على قدر من الوعي جعلها تدرك أهمية تعليم ابنتها؛ فأحضرت لها مدرسين في المنزل لتعليمها العربية والتركية والفرنسية والموسيقى. وعنبرة سلام الخالدي، كان أبوها زعيم قومه، وكانت أمها متعلمة، وهو أمر نادر في زمانها. فشجعها والدها على التعلم في المدرسة الأولية عند الشيخة، ثم في مدرسة جمعية ثمرة الإحسان، وكذلك شجعها على التعلم أحمد مختار بيهم؛ الذي كان يقدم جوائز تشجيعية للطالبات المتفوقات. وفيما بعد أحضر والدها لها كبار الأساتذة للإشراف على تعليمها في المنزل، منهم الشيخ عبد الله البستاني الذي علمها قواعد اللغة العربية وآدابها، وذلك فيما بعد عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م. وكان هذا المعلم في حدود السبعين من عمره، وقد رضي أن يقوم بالمهمة أداء لحق الصداقة بينه وبين والد عنبرة. كذلك أحضر الوالد لعنبرة معلمة لتدريسها اللغة الفرنسية، وقسيسا يدعى الأب يوسف الزهار ليدرسها

العلوم، ومعلمات ليدرسنها الموسيقى (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ١٤٩-١٥٠، ص ٢٠٥-٢٥١).

أما سنية حبوب المولودة عام ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م؛ فقد كانت أمها تجهل القراءة والكتابة، لكنها سعت إلى تعويض ما لديها من نقص في أبنائها، لذلك نجدها وزوجها قد شجعا ابنتهما على طلب العلم، حيث ألحقها أبوها وهي لم تكمل عامها الثالث بعد؛ بمدرسة الشيخ عمر في بيروت (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ٢٦٢).

وإلى جانب تشجيع الآباء والمقربين؛ تأثر تعليم البنات في هذه الفترة أيضا بالمستوى المعيشي للأسرة. فنجد أن من بين المبرزات في العلوم من ينتمين إلى الطبقات العليا في المجتمع. فعنبرة الخالدي؛ أبوها زعيم قومه؛ ولذلك أتيحت لها فرصة الدراسة بالخارج. وكان لذلك أثره في إثراء ثقافتها (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ٢٥١).

وعائشة أوغلي؛ ابنة السلطان عبد الحميد الثاني، رتب والدها أمر تعليمها على أيدي معلمين خصوصيين؛ وهما كاتب السر حسيب أفندي؛ للقرآن واللغة العربية واللغة الفارسية، وكاتب الشفرة الخصوصي كامل أفندي؛ للغة التركية والقراءة والقواعد العثمانية والحساب والتاريخ والجغرافيا (أوغلي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١، ص ٢٠٠).

ومع نهاية عصور الركود والتقليد، وبعد أن دخل الاستعمار في البلاد الإسلامية؛ أقيمت هناك المدارس المختلطة للأطفال من الذكور والإناث، والتي أسهمت بدورها في تعليم المرأة المسلمة.

ففي السودان بدأ المنصرون نشاطهم منذ عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م، وأقاموا مدارس مختلطة للأطفال تعلم القراءة والكتابة والحساب وصناعة الخشب والبناء والرسم والغناء والموسيقى. وقد تعلمت المرأة في السودان، وتدرجت في تعلم اللغات الأجنبية أيضا، ونجد المنصرين هناك قد ابتكروا طريقة الطواف على البيوت، بعد أن كانت جهودهم محصورة في مراكزهم وفي الكنائس، حيث عرفوا أن التقاليد لا تسمح بخروج المرأة في وضح النهار في بعض الأماكن؛ لذلك قامت المنصرات بتعليم النساء في بيوتهن فن الطبخ والخياطة والتطريز، إلى جانب مبادئ الكتابة والقراءة والحساب. وقد تقبلت كثير من الأسر هذا النمط من التعليم.كذلك أسهمت المنصرات في تعليم كثير من الإماء بعد تحريرهن؛ فن التوليد والتمريض شفويا (بدري، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٥).

وندرك من ذلك كيف أن حرمان المرأة من حقوقها المشروعة؛ يفتح المجال للآخرين لتحقيق أغراضهم في المجتمعات الإسلامية تحت غطاء الحقوق المشروعة.

ويلاحظ مما سبق أن دور الأم في تعليم البنت كان ضئيلا أو منعدما في الغالب، وذلك بسبب قلة الأمهات المتعلمات تعليما عاليا، ومحدودية علم الغالبية منهن، لذلك لم نجد سوى القليل من الأمهات اللاتي شجعن بناتهن على طلب العلم.

ومما يؤسف له أن محدودية علم الأم قد كانت تقف حائلا أمام رغبة ابنتها في طلب العلم في بعض الأحيان، كما حدث مع عائشة التيمورية التي كانت أمها تصر على تعليمها شئون المنزل وفن الحياكة، في حين كانت هي تنفر من ذلك رغبة في تعلم الأدب والفكر، فكانت دائما ما تنسل من مجالس النساء؛ حيث التطريز وشئون المنزل، إلى مجالس أبيها العامرة بأهل الفكر والأدب. وقد وجدت التشجيع من والدها الذي وقف مع ابنته؛ حين لم تكتف أمها بالكلام بل هددت وتوعدت، فحسم الموقف بقوله: " احذري من أن تكسري قلب هذه الصغيرة، وأن تثلمي طهره، وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق، فلا تقفي في سبيل ميلها ورغبتها وتعالي نتقاسم بنيتينا: فخذي (عفت) وأعطني (عصمت)، وإذا كانت لي من عصمت كاتبة وشاعرة فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد مماتي... " وعصمت هو الاسم الذي اختارته عائشة فوقعت به ديوانها باللغة التركية (زيادة، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م، ص٦١)/ (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ١٤١-١٤٢).

ثالثا: مبادئ وجهت تربية مسلمة عصور الركود والتقليد:

من المبادئ التي وجهت تربية مسلمة عصور الركود والتقليد:

١- التعلم الذاتي:

وذلك أن الرغبة في مواصلة التعليم؛ لم تكن تفرض من قبل القائمين عليه؛ بل كانت تعتمد على المتعلمات أنفسهن ومدى حرصهن على مواصلة التعليم.

وقد رأينا كيف أن سالمة بنت سعيد؛ الأميرة العمانية، قد بذلت مجهودا كبيرا لتعلم الكتابة بنفسها وبطريقة بدائية جدا. وهناك أيضا عائشة التيمورية التي ولدت عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م؛ نجدها في فترة من فترات حياتها تشعر برغبة في تقوية لغتها العربية، ومن ثم تحضر من يعينها على ذلك، وفيما بعد نجدها بعد وفاة ابنتها " توحيدة"؛ تقبل على تعلم الحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم (نصر الله ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م،

ج١، ص ١٤٣ـ١٤٦).

٢- الجمع بين الذكور والإناث في مراحل التعليم الأولي:

فقد كان المجتمع بصفة عامة يتقبل تعليم الذكور مع البنات في مرحلة الدراسة الأولية بالكتـاب؛ ولذلك وجدنا العديد من الكتاتيب تضم خليطا من الذكور والإناث، كما في كتاب الشيخ عمر ببيروت في أوائل القرن العشرين (نصر الله ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ٢٦٢)، وكما هو الحال في كثير من الخلاوي (الكتاتيب) التي وجدت في أنحاء متفرقة من السودان (الطيب، ١٤١١هـ/ ١٩٩١ م، ص٢٥٠)، وكذلك في مدغشقر؛ حيث كان الأولاد من الذكور والإناث يرسلون إلى الكتاب في السادسة من العمر ليدرسوا معا، ولا يفصل بينهم إلا في سن البلوغ (ستودارد، ١٣٩٣/ ١٩٧٣م ص ١٥٣)، وكذلك في زنجبار؛ كان يسمح لبعض المعلمين بتعليم البنات الصغيرات فقط، خاصة في العوائل الميسورة (سلطان، د.ت، ص ١٢٥-١٢٧).

لكن المجتمع لم يكن يتقبل هذا الخلط أبدا بالنسبة للفتيات البالغات، بل كان يقابله بالاعتراض الذي قد يصل إلى درجـة التهديد للفتاة التي تتعلم مع الذكور خاصة، بعد أن وجدت المدارس والجامعات المختلطـة في ظل الاستعمار.

ولذلك وجدت سنية حبوب رسائل التهديد تصلها من قبل المعترضين على انضمامها إلى جامعة البنين لتلقي بعض صفوف العلوم والرياضيات التي لم تكن متوفرة في كلية البنات التي كانت تدرس بها، على الرغم من التزامها بالحجاب؛ الأمر الذي جعل بعض أساتذتها يرافقونها عند خروجها من الجامعة حتى تصل إلى الكلية (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦، ج١، ص ٢٦٣).

٣- إعداد الفتاة لتكون ربة بيت:

فبعد أن تنتهي الفتاة من مرحلة الدراسة الأولية في الكتاب؛ غالبا ما كان يفرض عليها البقاء في المنزل لتواصل تعلم ما تحتاجه في المستقبل باعتبارها ستصبح زوجـة وأما.

ففي تونس كانت جميع الفتيات يتدربن على أعمال الإبرة؛ من خياطـة وتطريز. وكان ذلك يتم بهدف إعداد الفتاة لكي تهيئ بنفسها جهاز منزلها وثياب عرسها. وتتعلم الفتاة ذلك إما في المنزل على يد والدتها أو على أيدي معلمات ماهرات، مقابل عوائد تؤخذ من ذوي الفتاة في مواسم معينة (الحداد، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م، ص ١١٨).

وقد كان ذلك منتشرا في كثير من البلاد الإسلامية، ويشير إلى ذلك في مصر؛ ما كان يحدث من أم عائشة التيمورية من إصرار على تعليم ابنتها شئون المنزل وفن الخياطة، لأنها تعتبر " أن المنسج هو أداة النساء وأستاذ المعارف لبنات حواء "، ولما رأت نفور ابنتها من ذلك ظنت أن في طبعها شذوذا، فكانت " تسأل الله عليها صبرا، ولها معونة " (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ١٤١).

ونجد أن فن التطريز والخياطة قد أصبح جزءا من المنهج في المدارس التركية في ظل الحكم العثماني (عمارة، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م، ص ٧٥).

٤- الإيمان بالخرافات والدجل والشعوذة:

فقد شاعت الخرافات في هذا العصر كما أشرنا سابقا، وانتشرت بين العامة الذين أخذوا يعالجون الأمور بغير أسبابها. وأكثر من تأثر بذلك هو المرأة، وهو أمر ظاهر في سلوكياتها المختلفة في واقع حياتها.

فنجدها مثلا بدلا من معالجة الحسد بالرقية التي علمنا إياها رسول الله ﷺ؛ تعمد إلى الحجب والتمائم، وبدلا من الاهتمام بالصحة وقواعدها؛ تلجأ إلى الدجل الشعوذة. وقد سيطرت الخرافات على عقول النساء في هذا العصر بدرجة " تصعب مقاومتها " على حد تعبير سالمة بنت سعيد (ابن سلطان، د.ت، ص ٢٤٤).

من ذلك أن النساء في زنجبار؛ كن يعمدن إلى ربط حجاب إلى ذراع الطفل الأيسر في حالة الحسد. وكان هذا الحجاب يحوي بصلة أو ثومة أو عظما أو صدفة، وهذا بالنسبة لعامة الناس. أما الطبقة العليا من المجتمع فقد كان أفرادها يستعيضون عن الحجاب بآيات قرآنية منقوشة على قطع من الذهب أو الفضة تدلى من العنق بسلسلة. وكان الصرع عندهم؛ يعالج بعزل المريض في غرفة مغلقة مليئة بأنواع البخور من أجل طرد الأرواح الشريرة (ابن سلطان، د.ت، ص ٩٨، ص ١١٩).

وقد كان الاعتقاد بقدسية بعض الأماكن وقدرتها على تحقيق الأمنيات، وعلاج المرضى منتشرا في أرجاء العالم الإسلامي؛ ولذلك كانت النساء يعمدن إلى التقرب إلى هذه الأماكن بألوان النذور من أجل الشفاء أو محو الذنوب (فيصل، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م، ص ١١٧)/ (ابن سلطان، د.ت، ص١٧٣).

وكانت تربية البنات على الاعتقاد بالخرافات تبدأ منذ الصغر؛ وذلك من خلال سرد

قصص العفاريت والجان على الأطفال من أجل تسليتهم أو تخويفهم.

وقد عبرت هدى شعراوي عن ذلك في مذكراتها بقولها: " بدأت حياتي تحت رعاية خدم جهلاء، يخفون عن الأطفال أمثالي ما كان يجب أن يعرفوه من الحقائق، أو يحيطونها بنسيج من الخرافات له خطره وتأثيره على عقول الصغار " (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ١٧٣).

ونفس الأمر كان شائعا في زنجبار؛ حيث كان أطفال علية القوم يتلقون على أيدي المربيات قصص العفاريت والجان من أجل تسليتهم أو تخويفهم (سلطان، د.ت، ص ١٢٢).

وإذا كان هذا حال علية القوم، فلاشك أن الأمر كان أسوأ بكثير بالنسبة للعامة [١].

٥- تعدد المؤسسات التربوية التي يمكن أن تلتحق بها مسلمة عصور الركود والتقليد:

على الرغم من الركود والتقليد اللذين رانا على العالم الإسلامي في هذه الفترة من التاريخ، إلا أنه قد وجدت في هذا العصر العديد من **المؤسسات التعليمية** التي أسهمت في إخراج مسلمة عصور الركود والتقليد، والتي انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي كافة. وكان التحاق مسلمة هذه الفترة التاريخية بها؛ يعتمد على مدى إدراك ذويها لأهمية تعليمها.

وأولها **الكتاتيب** التي كانت منتشرة في جميع البيئات تقريبا، والتي ظلت تؤدي دورها في إمداد الفتاة المسلمة بالتعليم الديني المطلوب "من قبل المجتمع".

فمثلا في مكة المكرمة ومع نهاية هذا العصر وجدت هناك الكثير من الكتاتيب التي كانت تقوم عليها معلمات من النساء؛ حيث تعمد سيدة أو مجموعة من السيدات إلى التعليم في منازلهن. ومن ذلك كتاب آسية في المروة (الشامخ، ص ٢٩) وكتاب سلمى

(١) تذكر سالمة سعيد أنهم كانوا يعتمدون على العرافات لاستطلاع عودة الغائبين ومعرفة المستقبل، حيث أدى بهم الجهل إلى عدم ربط الأسباب بمسبباتها، فأصبحوا يشعرون بالضعف أمام ظواهر الطبيعة، فيخافون منها ومن أحداث الحياة، مما دفعهم إلى تصديق التفسيرات الغامضة، والتشبث بالأساطير الواهية، بحيث أنه كلما ازداد التفسير إبهاما وغموضا؛ ازداد تصديقهم له. وكانت النساء العرافات أستاذات هذا الميدان؛ حيث كان لهن القول الفصل في أمور المرض والزواج والولادة وغيرها من أمور الحاضر والمستقبل. فكان السحر والشعوذة تجارة رابحة لمن يقوم بها. (سلطان، د.ت، ص ١٥١-١٥٣)

كفيل الدين الراري في المسفلة[1].

وفي السودان كانت هناك الكثير من الكتاتيب التي يسمونها (الخلاوي)، ومفردها خلوة. وكانت هذه الخلاوي تقوم بتعليم الصغار من الذكور والإناث، أحيانا منفصلين، وأحيانا مختلطين بحسب الإمكانات المتاحة (الطيب، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢٥٠).

وفي بيروت كان هناك كتاب الشيخ عمر مع بداية القرن العشرين، وكان يجمع فيه بين تعليم الذكور والإناث (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ٢٦٢).

وإلى جانب الكتاتيب؛ ظلت **دور العلماء** في هذا العصر، كما في العصر السابق؛ منبعا ثرا لبنات العلماء أو قريباتهم من النساء، وخاصة العلماء الذين كانوا مدركين لأهمية العلم في الارتقاء بوضع المرأة المسلمة، وهم قليل.

ومن هؤلاء العلماء: أبو نصر أحمد بن الفرج الدينوري، المحدث الذي عني كثيرا بتعليم ابنته شهدة المولودة عام ٤٨٠هـ ، حتى وصلت إلى مرحلة متقدمة من العلم جعلت الكثير من طلاب العلم وعلمائه فيما بعد يشهدون لها. وكان والدها يشجعها على السماع من المشايخ (يوسف، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٥٩).

وكذلك عبد الغني بن علي العبدري؛ الذي اعتنى كثيرا بتربية ابنته سيدة وتعليمها بهدف تأهيلها " لحرفة " تعليم النساء. فتعلمت القرآن وبعض العلوم من بينها الخط الذي أجادته. ثم علمت في دور الأشراف والأغنياء وتوفيت سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م. وعبد الرحيم بن الحسن العراقي الذي اهتم بتعليم ابنته زينب المولودة عام ٧٩١هـ/ ١٢٨٨ م، حتى أصبحت محدثة. وعبد الله بن الحسن الأصفهاني الذي حمل ابنته زينب معه إلى أصبهان، وأتاح لها الفرصة للسماع من عدد من العلماء. وعلي بن محمد الطوخي، الذي أولى ابنته زينب المولودة عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م عنايته ورعايته حتى أصبحت محدثة، حافظة للقرآن الكريم، ولعدد من كتب الفقه، كما أنه اهتم بتعليمها الكتابة أيضا. ومحمد الشريف بن شمس الدين محمد الرويدشتي الأصفهاني، الذي عني كثيرا بتعليم ابنته حميدة المتوفاة عام ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦ م، حتى أصبحت على قدر عال من الفصاحة والعلم بتحقيق الحديث. وكان يدعوها علامته. ومحمد نجيب الذي اهتم كثيرا

(١) كل ما يخص كتاب سلمى كفيل الدين في هذا البحث من معلومات تحصلت عليه من خلال مقابلة مع عزيزة خياط؛ إحدى تلميذات المعلمة سلمى.

بتربية ابنته أمينة المولودة عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م، حتى أصبحت تقول الشعر. وسعيد شرتوني الذي اهتم بتعليم ابنته أنيسة فأرسلها إلى المدارس حتى إذا لاحظ عليها ميلها إلى الكتابة؛ " خرجها في الإنشاء والأصول العربية" حتى تمكنت من الأدب وأقبلت على الكتابة في المجلات[1]. وكذلك الفقيه عطوة المغربي، الذي علم ابنته مريم القرآن الكريم والفقه، حتى صارت من أفقه الناس في بيئتها بالسودان (الطيب، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٥٣).

وهناك أيضا قائد الجهاد الصوكوتي بالسودان؛ عثمان دان فوديو الذي أصر على أن تعطى بناته ونساؤه نفس الفرصة المتاحة للرجال للتعمق في الدراسات الدينية، وقد كان من آثار ذلك أن أصبحت ابنته نانا أسماء من أبرز علماء عصرها، وكانت مؤلفة وشاعرة ومعلمة ومستشارة. وكان دان فوديو[2] يصر على أن تحضر النساء وعظه ودروسه، بحيث يجلسن في مكان منفصل عن الرجال. وحين انتقده البعض على ذلك رد عليهم بقوله: " السماح للنساء بحضور الدروس خير من تركهن فريسة للجهل. " إلا أن هذا التقليد سرعان ما اضمحل بعد فترة، ولم يبق له سوى أثر بسيط لدى بعض الأسر التي كانت تحرص على تعليم نسائها القرآن الكريم ضمن نطاق الأسرة والأقارب (ليمو في ندوة التعليم الإسلامي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٣٥).

وهناك اللغوي الشيخ ناصيف اليازجي الذي اهتم كثيرا بتعليم ابنته وردة، المولودة عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م. وإسماعيل باشا تيمور الذي أحضر المعلمين لتعليم ابنته عائشة، المولودة عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ١٢٨، ص ١٤٠).

وهناك أيضا أمونة بنت عبود في السودان، والتي اهتمت بالتعليم؛ فبدأت بأفراد أسرتها، ثم أبناء قريتها والقرى الأخرى المجاورة. وكان الأهالي إذا ما سمعوا بها سارعوا إلى إحضار أبنائهم وبناتهم إلى منزلها (الطيب، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٥٣).

كذلك فقد ظلت **دور الحكام** وعلية القوم؛ تمثل في هذا العصر إحدى المؤسسات

---

(١) انظر في ذلك: (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١ ، ج٢).

(٢) في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي؛ ظهر دان فوديو الذي وحد شعب الفولاني القادم من الغرب، وفرض سيطرته على الهوسا، واتخذ الإسلام قاعدة له، وتلقب باسم أمير المسلمين، وعمل على نشر الإسلام. وقد توسعت إمارته حتى شملت أواسط نيجيريا وشمالها. (ياغي وشاكر، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، ص٢٥٧).

التربوية التي كان يتم فيها تعليم بناتهم على أيدي مدرسين خصوصين.

ونجد الأميرة سالمة سعيد تحكي عن تعليم البنات والبنين في قصر والدها، بأنه كان تعليما إلزاميا، يقوم به معلمون من الذكور والإناث، وأن القادرين من العامة في زنجبار كانوا (يستأجرون) معلمين خصوصيين لتعليم صغارهم من الذكور والإناث (ابن سلطان، د.ت، ص ١٢٥- ١٢٩).

كذلك أسهمت دور الحكام في تعليم غير بناتها من النساء المقربات إلى الأسرة الحاكمة، أو ممن هن على اتصال بها لسبب أو لآخر، حيث نجد أن أسرة زينب فواز كانت مقربة من الأسرة الأسعدية الحاكمة في لبنان، الأمر الذي أتاح لزينب الفرصة في الاتصال بالسيدة فاطمة بنت أسعد الخليل زوجة علي الأسعد، والتي أحاطتها برعايتها وشجعتها على طلب العلم وأسهمت في تعليمها القراءة والكتابة (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ١٥٢-١٥٣).

أيضا أسهمت **المدارس** في إخراج مسلمة هذا العصر، والتي انتشرت في أقطار العالم الإسلامي كافة، خاصة مع نهايته، حيث أتيحت الفرصة لعامة النساء في ارتيادها بعد أن كن شبه محرومات منها، حيث كانت الغالبية تتلقى تعليمها في الكتاب فقط.

فمع نهاية عصور الجمود والتقليد؛ عمدت الحكومة التركية إلى افتتاح كثير من المدارس الخاصة بتعليم البنات، كذلك قام المنصرون والمستعمرون بافتتاح كثير من المدارس التي لم يقبل عليها في بداية الأمر سوى البعض من الأهالي في حين صد عنها الغالبية.

ونجد أنه مع نهاية العهد العثماني؛ كانت علية القوم من النساء تتلقى تعليمها في المدارس التركية التي كانت تقدم أنواع العلوم المختلفة للبنات (خليل خليل، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩، ص٧).

ومن بين النساء اللاتي تلقين تعليمهن في المدارس في هذا العصر عنبرة الخالدي، التي تعلمت في مدرسة (مار يوسف) منذ عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م وحتى عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م. وكذلك سلوى نصار المولودة عام١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م، التي تلقت علومها الابتدائية في مدرسة الضيعة عند المعلمة (ملكة) ثم انتقلت إلى مدرسة (عين القسيس) لصاحبها المعلم فارس بدر (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ٢٥٠، ص٢٦٨).

وتشير سالـمة بنت سعيد إلى أنه وجدت في زنجبار في هذا العصر مدارس عامة لأبناء الفقراء (سلطان، د. ت، ص ١٢٩).

كذلك فقد أسهمت **الأربطـة** في إعداد مسلمة عصور الركود والتقليد، حيث كان لكل رباط في هذا العصر شيخ للرجال (أو شيخة للنساء)، يقوم بوعظ وتعليم المقيمين فيه.

ومن الأربطـة النسائية التي وجدت في هذا العصر، رباط بنت السقلاطوني، الذي تولت مشيخته زين العرب بنت عبد الرحمن بن عمر بن الحسين المحدثة التي توفيت عام ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤ م وهذه قد سمعت من ابن القرطبي، وأجاز لها السخاوي، وتقلدت مشيخـة الحرمين في أواخر أيامهـا (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٢، ص ٤٤).

٦-ضيق المنهاج ومحدوديته:

استهدفت تربية مسلمة عصور الركود والتقليد بصفة عامة **هدفين اثنين:**

الأول: تعليم المرأة مبادئ الدين (وفي بعض الأحيان القراءة والحساب).

الثاني: إعدادها للحياة المنزلية.

ولذلك وجدنا منهاج تعليم مسلمة عصور الركود والتقليد ضيقا جدا حيث مثل تعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين المحور الرئيسي. ويساند ذلك تعليم الهجاء من أجل تجويـد قراءة القرآن الكـريم . وكانت بعض الكتاتيب تقدم دروسا في الحساب والتقويم والعقائد، كما في زنجبار، وهو أمر نادر (ستودارد، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص ١٥٣).

ونجد أن تعليم الحساب في زنجبار مثلا؛ كان يتضمن عد الأرقام من الواحد إلى المائة وكتابتها وحفظهـا دون كتابة حتى الألف (سلطان، د.ت، ص ١٢٧).

وبصفة عامة فقد كان منهج كتاتيب البنات مشابها لمنهج كتاتيب البنـين، وهو في الغالـب " مواد لتعليم القراءة والكتابة وقراءة القرآن الكريم وحفظه وتجويده والحساب ومبادئ العلوم الدينية والسيرة النبوية والأخلاق " (ابن دهيش، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م، ص ٣٢).

وكان معلمو الكتاتيب ومعلماتها يبدأون بتعليم الحروف الهجائية ثم الحروف المحركة بالحركات، ثم الحروف الهجائية فيما كان يعرف بالقاعدة البغدادية، ثم تعلم الكتابة

وتركيب الكلمات، وفي الوقت نفسه يتم تعليم بعض السور القرآنية القصيرة بدءا بالفاتحة ثم جزء عم، ثم جزء تبارك، وهكذا (ابن دهيش، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م، ص ٤٧).

وسوف نورد فيما يلي صورة لمحتوى منهاج تعليم المرأة المسلمة في عصور الركود والتقليد، وذلك من خلال عرض مختصر لمحتوى منهاج كتاب " الفقيهة سلمى".

فقد كانت المعلمة سلمى كفيل الدين الراري تعلم الدارسات في كتابها، مبتدئة بالحروف الهجائية؛ فتبدأ بـ " أليف لا شيون عليها"، و "الباء واحدة من تحتيها وهكذا".

ثم : أنكم، بينكم، تنكم... وهكذا.

ثم : أنسب أ، بنسب ب ... وهكذا.

بعد ذلك تبدأ في تعليمهن القرآن الكريم، مبتدئة بسورة الفاتحة، ويسمونها الحمد. وكانوا يطلقون على كلمة سورة لفظ لوح؛ فهذه لوحها الحمد، وتلك لوحها إنا أعطيناك، وأخرى لوحها ألم نشرح وهكذا.

وكان كتاب سلمى كفيل الدين يعلم القراءة فقط، حيث لم تكن الفقيهة تعلم الدارسات الكتابة. وكانت إلى جانب القرآن الكريم تقوم بتحفيظ الدارسات بعض مبادئ التوحيد والفقه، وذلك على النحو التالي:

أول كلمة طيب: أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كلمة شهادة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

كلمة تمجيد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كلمة توحيد: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

إيمان مجمل: آمنت بالله كما هو بأسمائه وصفاته وقبلت جميع أحكامه وأركانه.

إيمان مفصل: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى والبعث بعد الموت.

ثم تقوم بتعليمهن كيفية الصلاة حيث يبدأن قبل الصلاة بقول: " إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين. نويت أن أصلي لله تعالى ركعتين صلاة الفجر سنة رسول الله ﷺ متوجهة إلى الكعبة الشريفة... الله أكبر".

وفي الفريضة: " نويت أن أصلي لله تعالى ركعتين صلاة الصبح فرض هذا الوقت..... الله أكبر".

ثم تعلمهن **دعاء الاستفتاح**:

" سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك".

وكان لهذا المحتوى نغمات خاصة يردد بها وكأنه نشيد، وكانت الفقيهة " المعلمة" حريصة على مراجعة حفظ الدارسات له حتى لا ينسينه.

كذلك كانت المعلمة سلمى تقوم بتحفيظ الطالبات" **المولد**"، وهو عبارة عن عدد من القصائد في مدح الرسول ﷺ ، وكان لكل قصيدة منها لحن معين.

وفيما يلي الأبيات الأولى لكل قصيدة من قصائد المولد:

القصيدة الأولى:

الصلاة على النبي ... والسلام على الرسول
الشفيع الأبطحي ... ومحمد عربي
خير من وطئ الثرى ... المشفع في الورى
من به حلت عرى ... كل عبد مذنب

القصيدة الثانية:

صلاة من المولى ... على من حوى الفضل
على من عليه الله ... رب السماء صلى
بشهر ربيع قد ... بدا نوره الأعلى
فيا حبذا نور ... بذاك الحمى يجلى

القصيدة الثالثة:

صلـــــي عـــلى المدنــــي | محمـــــــد رفيـــــع الــــشأن
مــا غـــرد عـــلى الفنـــن | قمــــري عـــلى الأغـــصـــان
تنقلــت في أربـــاب ســـؤدد | كـذا الشمس فـي أبراجــها تتنقـــل

القصيدة الرابعــة:

الله ولي الله ولي نعـــم الـــولي | صـلوا عـلى هـذا النبـي محمـد
ولـد الحبيـب وخـده متـورد | والنـور مـن وجناتـه متوقــد

القصيدة الخامسة:

ألـــف صلـــوا عـــلى النبـــي | بركاتــــه يحـــسن الــــمراد
أحمـــد الـــهادي الـــذي | عـــم جـــوده عـــلى الأنـــام
حـــصل القـــصد والمـــراد | وصفـــا الوقـــت والـــوداد
إنـــه حجـــي وعمـــرتي | رؤيتـــي روضـــة المقـــام

القصيدة السادسـة:

صلـــى الله علـــى محمـــد | صـــلى الله عليـــه وســـلم
يـــا نبـــي ســـلام عليـــك | يـــا رســـول ســـلام عليـــك
يـــا حبيـــب ســـلام عليـــك | صلـــوات اللـــه عليـــك

القصيدة السابعة:

مولاي صلي وسـلم دائـما دهـرا | على الحبيب عـلا فـوق العـلى وسرا

القصيدة الثامنة:

مولانـــا يـــا مولانـــا | يـــا سامـــع دعـانـــا
بحـــــرمة محمـــــد | لا تقطـــــع رجـــــانا

وبعد الانتهاء من المولد يقلن:

" صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم، ونحن على ذلك من الشاهدين".

وقد أتيح لبعض النساء في هذا العصر تعلم الخط وتجويده، ومن بينهن مريم بنت الحاج عطوة المغربي التي كانت تنسخ المصاحف وبعض كتب الأدعية والصلوات.(الطيب، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٥٣).

كذلك احتوى منهاج تعليم مسلمة عصور الركود والتقليد على أشغال الإبرة من خياطة وتطريز والذي- كما أشرنا سابقا - كان يتم على أيدي الأمهات أو معلمات ماهرات.

وإلى جانب الهدفين السابقين، فقد كانت هناك **أهداف أخرى** لتعليم مسلمة عصور الركود والتقليد - وهذا بالنسبة للقلة من علية القوم أو الخواص - والتي كانت تتنوع بحسب تنوع المتعلمات، والبيئات المحيطة بهن، وكذلك بحسب الرغبة الذاتية للمتعلمة. وقد رأينا كيف اهتم كثير من العلماء بتعليم بناتهم وقريباتهم حتى وصلت بعضهن إلى مراتب عليا في الحديث والفقه وغير ذلك من العلوم المتاحة.

وإلى جانب من أشرنا إليهن فيما سبق ؛ نجد هناك من النساء من تعلمن الطب أيضا، إلا أن عددهن كان محدودا جدا. من بينهن جليلة تمرهان وهي قابلة حبشية الأصل مصرية النشأة. وقد خلفت والدتها في مدرسة القوابل التي نفرت النساء المصريات من الالتحاق بها. وتفوقت جليلة في دراستها حتى صارت تعلم في المدرسة نفسها، وألفت كتاب" محكم الدلالة في أعمال القبالة " الذي طبع عام ١٢٨٦هـ - ١٨٦٩م. وقد توفيت عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م (كحالة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٥، ص ص ٣٠٧-٣٠٨).

وهناك أيضا: صوفيا سيف علي، وهي طبيبة تركية أتيحت لها الفرصة للدراسة بألمانيا، وتخرجت قبل عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م من إحدى الجامعات هناك، وفتحت عيادة خاصة بتطبيب النساء. وهي تعتبر أول طبيبة تخرجت من كليات الطب الحديث بتركيا. وقد ألفت كتابا في الصحة جاء فيه: " أن صحة المرأة التركية أحسن بكثير من صحة أختها المرأة الغربية، ونسبت ذلك إلى ما تقوم به المرأة التركية كل يوم من الوضوء والاستحمام (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج ٢، ص ٣١٣).

كذلك زينب بنت محمد بن الحسن التي تعلمت النحو والأصول والمنطق وعلم النجوم والرمل والسيمياء[1]. وقد توفيت عام ١١١٤هـ/ ١٧٠٢م (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٢، ص ١٠٦).

وحافظة بنت محمد سعيد، التي تعلمت الخط حتى أجادت النسخي والثلثي، ولها من الآثار بعض اللوحات من آي القرآن الكريم بخط يدها، وقد توفيت عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م. وخديجة بنت أحمد الحميدي الفاسية، التي حفظت القرآن الكريم وقرأته برواياته وتوفيت بفاس سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م.وسارة الحلبية، التي تعلمت الأدب والطب وعددا من الصناعات حتى مهرت فيها. وكانت تكتب الخط وتحل الذهب بمعرفة وخبرة فتكتب به. وقد عاشت في نهاية القرن السابع الهجري [2] (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ٢٣١، ص ص ٣١٩- ٣٢٠، ص ٣٢٢).

ونجد أنه مع نهاية هذا العصر، كانت نساء علية القوم يتلقين تعليمهن في المدارس التركية- كما أشرنا سابقا- حيث كن يدرسن فيها تاريخ العثمانين، والأدب التركي، والقراءة والكتابة والموسيقى، إلى جانب الخياطة والتطريز(خليل خليل، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٧، عمارة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٧٥).

وقد تنوعت أهداف تعليم المرأة في البيئات الخاصة وفقا لرغبة المتعلمات أو ذويهن، وإن كان وجود الرغبة لدى المتعلمات يشكل الموجه الأول لما يتعلمنه.

فإسماعيل تيمور باشا؛ حينما لمس لدى ابنته عائشة ميلا إلى تعلم القراءة والكتابة؛ عمد إلى إحضار من يعلمها ذلك، إلى جانب القرآن والفقه والخط، في حين قام هو بتعليمها اللغتين التركية والفارسية (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ص ١٤٠- ١٤٢).

وكذلك ناصيف اليازجي الذي حينما وجد لدى ابنته وردة ميلا نحو العلم والأدب؛ عمد إلى تعليمها العربية، وأحضر من يعلمها الفرنسية، وكان يتعمد مراسلتها شعرا لترد عليه بالشعر الذي بدأت تقرضه وهي في الثالثة عشرة من عمرها، وذلك من أجل صقل

---

(١) **السيمياء**: لفظ عبري يطلق على غير الحقيقي من السحر، و حاصله إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحس " (المعجم الوسيط، د. ت، ج ١، ص ٤٧١).

(٢) انظر: (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج ١، ج ٢، ج٣).

موهبتها الشعرية (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ص١٢٨-١٢٩).

ومثلها في ذلك سلام الخالدي الذي أحضر من يعلم ابنته عنبرة قواعد اللغة العربية وآدابها. وكذلك مبادئ العلوم.

٧-الاعتماد على التلقين:

كان التلقين يمثل الأسلوب الأساسي وشبه الوحيد في تعليم المرأة المسلمة في عصور الركود والتقليد، وخاصة في الكتاتيب التي كان المعلمون فيها، وخاصة النساء، يعمدن إلى تلحين الدروس التي كانوا يقدمونها أيا كانت نوعية تلك الدروس. وقد كانت بعض المعلمات يعتمدن هذا الأسلوب الذي يعتمد أساسا على الذاكرة دون أن تكلف نفسها عناء شرح ما تقدمه من معلومات للمتعلمات. وندرك هذا مما كان يحدث في كتاب سلمى كفيل الدين، التي كانت تعلم تلميذاتها بعض الأدعية التي كن يرتلنها بعد انتهائهن من قراءة بعض سور القرآن الكريم، مثل:

قول: " لا إله إلا الله والله أكبر " في نهاية سورة الكوثر.

وقول: "يا رب أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة والفوز بالجنة والنجاة من النار"، وذلك في نهاية سورة القارعة.

وقول: " يا حافظ ياحفيظ حفظنا القرآن المجيد "وذلك في نهاية سورة البروج.

والأمر المؤسف أن الفقيهة لم تكن توضح لتلميذاتها بأن هذه الأدعية خارجة عن نص السورة، مما جعل بعض الدارسات يعتقدن ذلك حتى أنهن كن يقرأن بها في الصلاة[1] .

وشبيه بما كان يحدث في كتاب سلمى كفيل الدين نجده في خلوة الشيخة خديجة بنت الفكي على، إحدى زوجات المهدي بالسودان، والتي كانت تقوم بتعليم البنات، ويساعدها في ذلك أحد المقرئين، " وكان التعليم أساسا يعتمد على الذاكرة، بواسطة تلحين الدرس سواء كان قرآنا أو حديثا أو درسا في النحو، وكذلك راتب المهدي (مجموعة أدعية) (بدري، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٧).

---

(١) إحدى الدارسات أخبرت الباحثة بأنها قد عانت كثيرا في سبيل التخلص من قول هذه الأدعية في الصلاة، بعد أن علمت بعدم تعلقها بالسور القرآنية، وأنها قد نجحت في ذلك ولكن بعد عناء شديد.

٨ - الدراسة شبه المنظمة:

إن الناظر في مؤسسات تربية مسلمة عصور الركود والتقليد؛ يجد في غالبيتها غير قليل من التنظيم للبرامج المقدمة، وكذلك لاستخدام أساليب الثواب والعقاب، وإن كان غالبيته يمثل استمرارا للتنظيم الشكلي الذي وجد منذ عصور الازدهار.

ففي الكتاتيب التي مثلت المؤسسة الأولى والأكثر انتشارا لتعليم مسلمة عصور الركود والتقليد؛ كانت الدراسة إما على فترة واحدة صباحية، أو على فترتين صباحية ومسائية. وقد كانت تبدأ منذ الصباح الباكر وحتى أذان العصر أو المغرب، تتخللها فترة لتناول طعام الغداء ونيل قسط من الراحة. وكانت هناك عطلة أسبوعية من بعد ظهر يوم الخميس وحتى صباح السبت، وهناك إجازات في العيدين والمناسبات الدينية والرسمية وفي أيام هطول الأمطار. إضافة إلى أن هناك إجازة تمنح للطالب المتخرج في حفظ القرآن الكريم أو جزء منه. وكانت مدة الدراسة لا تقل عن سنتين ولا تزيد عن ست سنوات (ابن دهيش، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م، ص ٥٦).

ويعطينا تنظيم الدراسة في كتاب سلمى كفيل الدين الراري والخوجة[1] فاطمة الطيب الهزازي، صورة لتنظيم الدراسة في المدارس الأولية لتعليم المرأة المسلمة في عصور الركود والتقليد.

كانت الدراسة في كتاب الفقيهة سلمى على فترتين صباحية ومسائية؛ حيث كانت الدارسات يذهبن إلى بيوتهن لتناول طعام الغداء ثم يعدن إلى الكتاب، وذلك طوال أيام الأسبوع ماعدا الجمعة الذي كان يوم عطلة. كما أن الدراسة في يوم الخميس كانت صباحية فقط. وفي هذا اليوم؛ تقوم الدارسات بقراءة جزء عم بكامله، وسورة يس، وسورة الملك، والمولد.

وكان ذلك يستغرق منهن وقتا طويلا، فلا يعدن إلى بيوتهن إلا في وقت متأخر من الظهيرة.

أما في كتاب الخوجة فاطمة فقد كان هناك جمع بين تدريس العلوم الدينية والمعرفية، وكانت مدة الدراسة أربع سنوات تنتهي بحصول الدارسة على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية. وكانت الخوجة تتقاضى ريالين شهريا رسما للدراسة التي كانت تتم في فصل

---

(١) **فقيهة وخوجة**: لفظتان كانتا تطلقان على معلمات الكتاتيب.

شبيه بالفصول الدراسية في المدارس؛ حيث كانت هناك مقاعد تجلس عليها التلميذات اللاتي كن يشترين الكتب الدراسية التي يدرسن فيها، ويستخدمن الدفاتر والأقلام (أبو حسين، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦ م، ص ١٩١).

ولم تخل **المدارس** أيضا من التنظيم، فقد كان لكل مدرسة نظامها الخاص بها، لكن وبصفة عامة لم يكن هناك نظام تام في جميع المدارس وقد عبرت عن ذلك سنية حبوب بقولها:

" لم نعرف النظام المدرسي إلا في مدرسة "الست أليس" التي جعلت الطالبات يجلسن فوق المقاعد، وأمامهن طاولات للكتابة "... " الست أليس علمتنا النظام والإنشاد وأدخلت نهضة جديدة إلى عالم التربية حينذاك. وفي مدرستها ختمت القرآن " (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ٢٦٢).

وفيما يتعلق **بأساليب الثواب** التي استخدمت في هذه الفترة فقد وجدت **الإجازة** مع بداية عصور الركود والتقليد، والتي كانت تعطى للمتعلمة، دليلا على وصولها إلى مرتبة تؤهلها لتعليم غيرها.

ومن بين المتعلمات اللاتي حصلن على إجازات رقية بنت يحي البصرية المحدثة التي ولدت عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م، وتوفيت عام ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م، وقد أجازها الذهبي والمزي وابن سيد الناس، وزينب بنت الكمال وغيرهم (كحالة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج١، ص ٤٥٩).

وهناك أيضا آسية بنت جار الله الشيباني الطبري المولودة بمكة سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م، وقد أجاز لها السخاوي، والعراقي وغيرهما (حائري، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ج١، ص ١٩٣).

ونجد أن تفوق من أتيحت لهن الفرصة من مسلمات عصور الركود والتقليد لم يتوقف عند مجرد نيل الإجازة بل وإعطائها أيضا.

فرقية البصرية، قد نالت إجازة من زينب بنت الكمال (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ص ٤٥٩)، وآسية الطبري قد أجازت محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي (كحالة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج١، ص٦)، بل نجد من بين العلماء من حاز على شهادات من كثير من العالمات من النساء، من بينهم أبو الفتح العثماني الذي تحصل على إجازات من زينب الدمشقية المولودة سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م (كحالة، ١٣٩٧هـ /

١٩٧٧م،ج١، ص ١٠٠)، وست القضاة بنت عبدالوهاب بن عمر بين كثير المتوفاة سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، ورقية البصرية [١].

هذا فيما يتعلق بمرحلة الدراسة العالية.

أما في مرحلة الدراسة الأولية، فقد اختلفت أساليب الثواب باختلاف البلدان والعادات والتقاليد. فنجد في السودان وفي خلوة الشيخة خديجة بنت الفكي علي؛ كانت هناك " الشرافة" التي تمثل شهادة إكمال كل درس، وهي حفلة تشريف تقدم فيها العصيدة بملاح الروب" اللبن الحامض"، وبعد أن تأكل الشيخة والمقرئين، يأكل الصبية، ثم يقومون بمسح أيديهم على رأس الدارسة التي أقيم الحفل على شرفها (بدري، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٧).

وصورة أخرى نجدها في الكتاتيب في مكة المكرمة حيث كانت الاحتفالات تتمثل في نوعين: **الإصرافة والإقلابة**.

فالإصرافة: حفل بسيط، حيث يأتي أهل التلميذة إلى الكتاب للاستماع إلى السورة التي بلغتها ابنتهم، وبعد ذلك تقدم بعض الهدايا للفقيهة، وتوزع الحلوى على التلاميذ، ثم يعلن ذلك اليوم إجازة، ابتهاجا بالمستوى الذي وصلت إليه، ويزين لوح التلميذة في ذلك اليوم بالأحمر والأخضر.

ويصف الأستاذ محمد علي مغربي هذا الاحتفال للبنت فيقول: " فإذا وصلت البنت (في جدة) إلى سورة الضحى؛ عملت لها (الصرافة) وهي عبارة عن حفلة تخرج فيها الفقيهة، ومعها البنات، تتقدمهن البنت المتخرجة ـ إن صح هذا التعبير ـ وهي تحمل اللوح وقد كتب عليه سورة الضحى، فيسرن إلى بيت أهل الطفلة الذين يستعدون لهذه المناسبة باستدعاء الأهل والصديقات والجارات، فإذا وصل الموكب أجلست الفقيهة البنت أمام الحاضرات وأمرتها بقراءة السورة، فتقرؤها في اللوح، فترتفع الزغاريد وتوزع الحلوى على الحاضرات ويوزع النبات (سكر معقود) على البنات، ثم تبقى الفقيهة لتناول الطعام لدى أهل البنت المتخرجة، ولا تخرج إلا وقد أتحفت بمبلغ محترم من النقود من

(١) انظر: كحالة، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م، ج١.

والدة البنت والنقوط [1] من أهلها، وربما أعطيت بدلة كاملة لاجتهادها في تعليم البنت وإيصالها إلى هذا الحد العظيم من العلم " (ابن دهيش، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م، ص ٥٥).

أما الإقلابة: فهي تعني قلب الكتاب رأسا على عقب، إذا ما أتمت إحدى الدارسات جزءا معينا ممن القرآن الكريم، حيث يقيم أهلها حفلا كبيرا، وتسير الدارسات في موكب شعبي يطفن بالتلميذة شوارع البلدة وينشدن الأناشيد. وكن ينتظمن صفوفا صفوفا في مربعات أو مسدسات، ويجلن ما اتسع لهن الوقت في الطرقات من الكتاب إلى الكتاب، فيدرن في الشوارع قبل الذهاب إلى بيت التلميذة الفائزة. وكن يلبسن ملابس معينة" برقع ملاية" تشبه ثوب العروس في المدينة المنورة قديما.وكان ثوب الفائزة يزين بحبات من القصب، ويتم تناول طعام الغداء في بيت الفائزة. (الشامخ،١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م، ص ٣٩)

ويذكر محمد علي مغربي أن حفل الإقلابة أو القلابة كان يعني أنه لا مكان للبنت في بيت الفقيهة بعده، حيث يجب أن تتعلم بعد ذلك علوما أخرى (ابن دهيش، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧، ص ٥٥).

ويذكر ابن دهيش أن مظاهر التعبير عن هذه الاحتفالات كانت تختلف من أسرة لأخرى ومن مدينة لأخرى وذلك بحسب ظروف الأسرة من غنى أو فقر (ابن دهيش، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧، ص ٥٣)

أما فيما يتعلق **بأساليب العقاب** في مؤسسات تربية مسلمة عصور الركود والتقليد، فقد كان غالبا ما يتم باستخدام العصا (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص ٢٦٢)، إلا أن بعض المعلمات كن يجمعن بين العصا والفلقة[2]، فنجد أن المعلمة سلمى كانت

---

(١) **النقوط**: ما يرمى من نقود على لوح الطالبة في أثناء الاحتفال بالطالبة من الحاضرات للحفل كتشجيع للطالبة (ابن دهيش، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧، ص ٥٥).

(٢) **الفلقة أو الفلكة**: بفتح الفاء وتسكين اللام وفتح الكاف ثم التاء المربوطة، وهي الأداة التي يستخدمها مدرس الكتاب لعقاب الطلاب عندما يرتكبون أي ذنب ولو بسيط جدا، أو عندما لا يقومون بعمل الواجب المطلوب منهم. وهي تصنع في الغالب من شجر العرعر على شكل المغزل وفي أطرافها ثقوب. وفي كل ثقب حلقة معدنية قوية مربوطة بحبل سميك موصل على الحلقة الأخرى توضع فيها أقدام الطالب المذنب أو الذي لم يحفظ دروسه، ثم ترفع من قبل طالبين، وتدار الخشبة حتى تشد على قدمي الطالب، ثم يقوم المدرس بجلد الطالب على موطئ قدميه عددا من الضربات بعصى الخيزران اللين، وبهذه الطريقة يكون عقاب الطالب المهمل لواجباته (ابن دهيش، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧، ص ٤٩).

أحيانا تحضر قطعة قماش، فتربط بها رجل التلميذة المقصرة في وسطها، ثم تجعل تلميذتين غيرهما تمسكان بطرفي قطعة القماش ثم تبدأ هي بضرب الفتاة المقصرة.

وأسلوب آخر استخدمته المعلمة سلمى، تمثل في تكليف التلميذات القيام ببعض أعمال منزلها من كنس وغسل ملابس وأعمال المطبخ.

٩- إسهام المؤدبين في تعليم النساء التعليم المتخصص:

شاعت في هذا العصر ظاهرة المؤدبين الذين كان أهالي المتعلمات بحضرونهم إلى منازلهم من أجل تعليم البنات التعليم المتخصص في بعض الحقول المعرفية، خاصة قبل إنشاء المدارس، حيث كان التعليم الذي تقدمه الكتاتيب محدودا جدا كما رأينا.

وقد كان هؤلاء **المؤدبون** من المعلمين والمعلمات.

فمن بين **المعلمين** المؤدبين: كان هناك خليل رجائي، أستاذ القراءة والكتابة، ومؤنس أفندي، أستاذ القرآن والفقه والخط، واللذين أسهما في تعليم عائشة تيمور.وهناك أيضا الشيخ عبدالله البستاني، أستاذ قواعد اللغة العربية وآدابها، والأب يوسف الزهار أستاذ مادة العلوم واللذين أسهما في تعليم عنبرة الخالدي (نصر الله، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م، ص ص ١٤٠-١٤٢).

وإلى جانب هؤلاء المعلمين وغيرهم؛ وجدت في هذا العصر بعض **المعلمات** من الإناث ممن أتيحت لهن الفرصة للتعمق في دراسة بعض التخصصات، الأمر الذي شجعهن على تعليم البنات إما في منازلهن أو العمل مدرسات خصوصيات لدى العائلات. بل إن من بينهن من تلقى العلم على يدها كثير من الذكور. ومن بين هؤلاء شهدة الدينورية التي كان من بين تلاميذها ابن الجوزي وعلي بن وهبة الله والشافعي وعبد الرحمن بن عبد الوهاب الحنبلي وغيرهم، وأسماء بنت إبراهيم التي كانت تلقن النسوة القرآن الكريم وتعلمهن العلم وقد توفيت عام ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٨ م، وزينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المقدسية وهي محدثة ولدت عام ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٨ م وقد سمع عليها محمد الوافي جزءا من مسلم، وسمع عنها ابن بطوطة في جامع بني أمية بدمشق وتوفيت عام ٧٤٠ هـ/ ١٣٣٩ م، وألف بنت عبدالله بن علي الكتاني التي قرأ عليها السخاوي ثلاثيات مسند أحمد وتوفيت عام ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤ م، و أسماء بنت موسى الضجاعي، يمانية من زبيد، كانت تقرأ التفسير وكتب الحديث وتسمع النساء

وتعظهن وتؤدبهن، وقد توفيت عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م[1].

وكذلك فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية اللتان تلقت على أيديهما عائشة تيمور علوم النحو والعروض حتى برعت فيهما (كحالة، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م، ج٣، ص ١٦٢).

وقد أشارت الأميرة سالمة إلى أن قصر والدها قد اشتمل على معلمات من النساء إلى جانب المعلمين من الرجال (سلطان، د.ت، ص ص ١٢٥-١٢٧).

أما الأميرة عائشة بنت السلطان عبدالحميد الثاني، فقد كانت إحدى مربياتها تساعدها على حفظ دروسها، كما أنها درست الموسيقى على يد معلمة اسمها دريكتا (أوغلي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٠٢).

١٠- إسهام المرأة المسلمة في إنشاء وإدارة المؤسسات التعليمية والإنفاق عليها:

أسهمت كثيرات من مسلمات عصر الركود والتقليد في إنشاء المؤسسات التعليمية من مدارس وكتاتيب وأربطـــة مما يشير إلى ما كان يعتمل في نفوسهن من ميل شديد إلى العلم. وهناك الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك؛ منها أن ست الشام بنت أيوب بن شادي أخت صلاح الدين الأيوبي التي توفيت عام ٦١٦هـ / ١٢١٩م، قد قامت بإنشاء مدرستين عظيمتين هما المدرسة الشامية البرانية والمدرسة الشامية الجوانية بدمشق.

وكذلك قامت بابا خاتون بنت أسد الدين شيركوه، ابنة عم صلاح الدين، بالوصاية بأملاكها لتكون بعد وفاتها مدرسة ومدفنا ومواضع للسكنى، فكانت ثمرة ذلك المدرسة العادلية الصغرى بدمشق. وقد أوصت أيضا أن يكون للمدرسة مدرس ومعيد وإمام ومؤذن وبواب وقيم وعشرون فقيها. وجعلت أوقافها وقفا على هذه المؤسسات وذلك في أوائل رمضان عام ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٢، ص١٥٥، محمد يوسف، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ص ١٧-١٩).

وهناك أيضا خديجة بنت الملك شرف الدين عيسى ابن الملك العادل التي توفيت عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م، نجدها قد أنشأت المدرسة المرشدية بدمشق عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م.(محمد يوسف، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص ٣٣)، وعائشة زوجة شجاع الدين الدماغ التي أنشئت المدرسة الدماغية بدمشق داخل باب الفرج وذلك في عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م. (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٣، ص ١٣٦)، وعصمة الدين مؤنسة خاتون

(١) انظر: كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ج ٢.

ابنة الملك العادل أبو بكر أيوب التي ولدت عام ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م، وتوفيت عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م، وقد كانت محدثة كثيرة الصدقة تركت مالا جزيلا وأوصت ببناء مدرسة يجعل فيها فقراء، وقراء، ويشترى لها وقف يغل عليها. وقد نفذت وصيتها وجعل فيها درس للشافعية وآخر للحنفية. (محمد هاشم الندوي في ابن جماعة، د.ت، ص ١٩٥)، وقد توفيت عام ٧٢٦ أو ٧٢٩هـ / ١٣٢٥ أو ١٣٢٨م (كحالة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج٢، ص ٤)، وبركة بنت عبدالله أم السلطان الأشرف التي أنشأت سنة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م مدرسة بالقاهرة وخصصت بها درسا للشافعية ودرسا للحنفية وجعلت على بابها حوض ماء للسبيل. وقد رتبت فيها دروسا للمذاهب الأربعة وحضورا في كل يوم للصوفية ومكتبا للأيتام، وأغل خاتون بنت محمد القازانية البغدادية التي أوقفت المدرسة الخاتونية بباب الحديد جوار الحرم بالقدس، ثم أكملت عمارتها ووقفت عليها أصفهان شاه بنت الأمير قازان سنة ٧٨٢هـ / ١٤٧٧م، والأميرة أمينة أم المحسنين، حرم الخديوي توفيق التي أنشأت مدرسة للبنات دعتها باسمه، ثم ضمت إلى وزارة المعارف المصرية، وقد توفيت عام١٣٥٠هـ / ١٩٣١م[١]. وصولت النساء التي أنشأت المدرسة الصولتية بمكة المكرمة والتي اكتمل بناؤها عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م[٢].

وقد أشرنا فيما سبق إلى الكتاتيب باعتبارها من المؤسسات التعليمية التي أسهمت مسلمة عصور الركود والتقليد في إنشائها خاصة مع نهاية هذا العصر[٣]، ومن أمثلتها أيضا الخلاوي – الكتاتيب – الكثيرة التي أسهمت المرأة السودانية في إنشائها، وأجرت كسبها إنفاقا على الطلبة والطالبات.

ومن هؤلاء " أمونة بنت عبود التي أسست مكتبين أحدهما للغلمان والثاني للبنات، ورغم أن زوجها- الذي كان قائدا عسكريا – كان راغبا في مساعدتها على النفقات إلا

---

(١) انظر: كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ج ٢.

(٢) **صولت النساء**: سيدة هندية من مقاطعة كلكتا بالهند. جاءت إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م، وأبدت رغبتها في بناء رباط بمكة المكرمة، وكان زوج ابنتها على صلة بالشيخ رحمة الله مؤسس المدرسة الصولتية، فأوضح له أن بمكة المكرمة العديد من الأربطة وأن ما ينقصها هو مدرسة تعنى بتعليم أبناء المسلمين، وقد لاقت الفكرة قبولها لدى صولت النساء التي قدمت الأموال اللازمة للمشروع واشترى الشيخ -رحمة الله- أرضا بحارة الباب بمكة المكرمة، وبنى عليها أول بناء للمدرسة التي سميت بالصولتية نسبة إلى المتبرعة المحسنة. (بغدادي، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م، ص٢٤١).

(٣) انظر: ص ٢٣٥ حيث الحديث عن كتاتيب البنات في المملكة العربية السعودية في هذا العصر.

أنها قد رفضت أن يشوب إنفاقها على المدارس شائبة، فكانت تنفق على المتعلمين العائد من أرضها الواسعة على النيل التي كانت تزرع بالقطن. وبعد الحصاد كانت نساء الحي والطالبات يقمن بغزله، ثم استقدمت نساجين لينسجوه، وكانت توزع ذلك النسيج كساء للطلبة والطالبات. وما زاد تتصدق به على الحجيج المارين بها من غرب أفريقيا. وكان اهتمامها بالحجيج كبيرا، وهم الذين نشروا أخبارها في كثير من بلاد أفريقيا. وبعد أن رأى الأهالي نجاحها؛ تنازل كثير منهم عن أراضيهم لله، فصارت أراضيها الزراعية واسعة، استغلتها كلها في الإنفاق على التعليم. وقد كرمها أهل قريتها بعد فترة حيث أصبح كل ما في القرية يحمل اسمها " أمونة"، وقد عاشت في الربع الأول من القرن التاسع عشر (الطيب، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٥٠-٢٥٢).

وهناك مريم بنت الحاج عطوة التي كانت تدرس القرآن الكريم والفقه لكافة الناس، وتخصص جزءا من وقتها للوعظ (الطيب، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٥٣)، وفاطمة بنت جابر التي كانت تدرس القرآن الكريم في خلوتها بقرية (ترانج) مع أخويها إبراهيم وعبد الرحمن اللذين أسسا أول الخلاوي لتعليم القرآن الكريم بمنطقة "كريمة" بالسودان (بدري، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٣)، وأم كلثوم بنت القرشي، ووالدها الشيخ العالم القرشي ود الزين، الذي بلغ درجة عالية من العلم، فقد التزمت أم كلثوم منذ شبابها بتدريس البنات والبنين، ثم بعد أن انتشرت الخلاوي للبنين اقتصرت على تدريس البنات، وتوسعت في بناء الخلاوي الدراسية والسكنية بعد أن توافدت عليها البنات، وقد كانت تركز على الماهرات من طالباتها فتحرص على تعليمهن وتحفيظهن، ولا تدعهن يخرجن إلا في حالات الزواج. (الطيب، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٥٤-٢٥٥)، وكذلك الشيخة خديجة الأزهري، التي كانت من بين من أسهمن إسهاما فعالا في نشر التعليم الأهلي إلى جانب غيرها، وكانت إلى جانب إدارتها لخلوتها؛ تطوف على النساء في المنازل لتعليمهن، وكذلك الشيخة الفقيهة رقية بنت عبدالقادر، وهي من أهالي جزيرة توتي، كانت تطوف على المنازل.

وقد عملت هؤلاء المعلمات على تقليد المبشرات في طوافهن على المنازل، فكانت حلقة الشيخة منهن" بحق مدرسة متحركة أفادت كثيرا في توعية النساء ونشر المعرفة بينهن" (بدري، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٨).

وفي لبنان كانت هناك المعلمة ملكة صاحبة الكتاب الذي درست فيه سلوى نصر، (نصر الله، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص٢٨٥)، وفي تونس كانت هناك بعض المعلمات الماهرات في فنون الإبرة من خياطة وتطريز، واللاتي جعلن من بيوتهن" مدارس" ترتادها الفتيات الصغيرات ليتعلمن فيها مقابل عوائد بسيطة يدفعها الأهل (الحداد، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م، ص ١١٨).

* * *